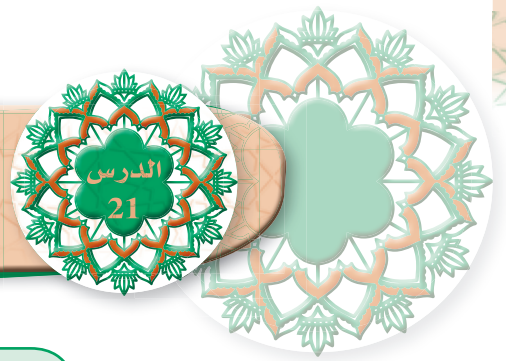


القيم والأخلاق في الفلسفة الإسلامية (القيم الاجتماعية)



أهداف الدرس

1. أن أتعرف معنى القيم الاجتماعية في الفلسفة الإسلامية؛
2. أن أثبت بعض أنواع القيم الاجتماعية في الفلسفة الإسلامية؛
3. أن أتمثل القيم الاجتماعية لتنمية سلوكي الجماعي.

تمهيد

للقيم الاجتماعية أثر بالغ في بناء المجتمع وتوجيه وترشيد سلوكه؛ فهي لُحمة الحضارة الإنسانية، ومحقة للتوافق الاجتماعي، ثمرتها الوعي بحقيقة المشترك الإنساني، مدا لجسور التلاقي، وامتدادا لقنوات التواصل والتعاون بينهم. بمنظومة القيم الاجتماعية ترقى الأمم إلى أسرى مدارج الفكر وأعلى القمم.

فما المقصود بالقيم الاجتماعية؟ وما أنواعها؟ وما أثرها في السلوك الفردي والاجتماعي؟

نص الانطلاق

1. يقول الكندي: «الفضائل-القيم- الإنسانية هي الخلق الإنساني المحمود، وهي تنقسم قسمين أوليين: أحدهما في النفس، والآخر فيما يحيط بَدَنَ الإنسان من الآثار الكائنة عن النفس. أما القسم الكائن في النفس فينقسم ثلاثة أقسام: أحدها الحكمة، والآخر النجدة، والآخر العفة؛ وأما الذي يحيط بذِي النفس فالآثار الكائنة عن النفس، والعدل فيما أحاط بذِي النفس. وأما الحكمة فهي فضيلة القوة النطقية، وهي علم الأشياء الكلية بحقائقها واستعمال ما يجب استعماله من الحقائق. أما النجدة فهي فضيلة القوة العَلَبِيَّة وهي الاستهانة بالموت في أخذ ما يجب أخذه، ودفع ما يجب دفعه. وأما العفة فهي تناول الأشياء التي يجب تناولها لتربية أبدانها، وحفظها بعد التمام وائتمار امتثالها، والإمساك عن تناول غير ذلك... فضيلة هذه القوى النفسانية جميعا الاعتدال المشتق من العدل، وكذا الفضيلة فيما يحيط بذِي



النفس من الآثار الكائنة عن النفس هي العدل في تلك الآثار؛ أي العدل في إرادات النفس من غيرها وبغيره» [رسائل الكندي - رسالة في حدود الأشياء ورسومها-، ص 177- 179].

2. يقول الإمام الفارابي: «وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده، بل يحتاج إلى قوم، يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه، وكل واحد من كل واحد بهذه الحال. فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال، الذي لأجله جعلت الفطرة البشرية إلا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه، وفي أن يبلغ الكمال، ولهذا كثرت أشخاص الإنسان، فحصلوا في المعمورة من الأرض، فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية...». [أراء أهل المدينة الفاضلة الفارابي، ص 117]

الفهم

الشرح:

- **قوامه:** أساس وجوده الذي يثبته ويقويه.
- **القوى النفسانية:** القدرات الموجودة داخل الإنسان التي تتحكم في مشاعره وأفكاره، وأفعاله.
- **المعمورة:** الجزء من الأرض الذي يسكنه البشر.

استخلاص المضامين:

- استخلص من النصين أهمية القيم الاجتماعية وأنواعها.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: مركزية القيم والأخلاق الاجتماعية في الفلسفة الإسلامية

ترتبط منظومة الأخلاق والقيم في الفلسفة الإسلامية بمرجعية الإسلام، كتاباً وسنة واجتهاداً؛ فغاية الغايات من رسالة الإسلام هي تتميم مكارم الأخلاق؛ لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» [رواه الإمام أحمد] كما ترتبط بالنظرة الشاملة للإسلام للعلم والمعرفة والسلوك، ضبطاً وتقنيناً وتوجيهاً، وتعد القيم الاجتماعية في الفلسفة الإسلامية جزءاً لا يتجزأ من النظام الخلقي

الإسلامي الشامل؛ حيث تستمد هذه القيم مبادئها الأساسية من الشريعة الإسلامية، مستهدفة تحقيق التوازن والانسجام في المجتمع، وتعزيز التكامل والتعاون والتكافل بين أفرادها.

كلمة «قيمة» و«قيم» وردت في في آيات عديدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿بِقَائِمٍ وَقَدْ جِئَكَ لِلدِّيرِ الْفَيْمِ﴾ [الروم: 43]، وقوله تعالى: ﴿بِقَائِمٍ الْيَبْرِ الْفَيْمِ﴾ [التوبة: 36]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جِئَكَ لِلدِّيرِ الْفَيْمِ﴾ [البينة: 5]، وترجع هذه الكلمة في جانبها اللغوي إلى فعل «قوم» الذي يدل على عدة معانٍ منها: الثبات، والاستقامة، والاعتدال، وقوام الشيء: ما يقوم به ويُستند إليه، والقائم بالأمر: من يُصلحه ويُديره. وقوام الأمر: نظامه وعماده الذي يقوم به». [لسان العرب، مادة: قوم]، [مقاييس اللغة، مادة «قوم»] ولمصطلح القيم تاريخ ونشأة وتطور وامتداد، يختلف مفهومه باختلاف المرجعية والمجال والعصر والتراث. وقد اهتم الفلاسفة المسلمون بموضوع القيم الفردية والاجتماعية، وكتبوا في ذلك مؤلفات كثيرة، وأفردوا موضوعات منها في ثنايا مؤلفاتهم الفلسفية ومن ذلك كتاب: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لأحمد ابن مسكويه، وكتاب الأخلاق لمحي الدين بن عربي الحاتمي، ورسائل ابن سينا في الحكمة والطبيعات، ورسائل الإمام الفارابي وبوجه خاص آراء أهل المدينة الفاضلة، ورسائل الكندي، ورسائل ابن حزم، وموسوعة أبي حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - وغيرها.

وقد أورد الفلاسفة المسلمون تقسيمات وتفرعات عديدة للفضائل - القيم - ترجع إلى أصول أربعة هي: العفة، والشجاعة، والحكمة، والعدالة؛ يقول الإمام الغزالي: «فإن أهميات الأخلاق وأصولها أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل». [إحياء علوم الدين 54/3] وهي قيم اجتماعية توجه السلوك الإنساني نحو الكمال، والغاية القصوى، وهي الخير والسعادة في الدارين، ويمكن الوقوف مع بعض القيم الاجتماعية في الفلسفة الإسلامية، وهي:

- **العدل:** وهو «حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها» [إحياء علوم الدين 54/3]، فالعدل هو الفضيلة - القيمة - الشاملة التي تحقق الإنصاف والتوازن بين الفضائل الثلاث: الحياء - العفة - الشجاعة، الحكمة، وتعد قيمة العدل من القيم الأساسية التي تناولها الفلاسفة المسلمون، (الكندي الفارابي - الغزالي - ابن رشد - ابن حزم...) نظراً لصلتها الوثيقة بالإنسان والمجتمع؛ حيث يرى الإمام الفارابي أن العدل أساس المدينة الفاضلة، وهو من الفضائل (القيم) الضرورية لتحقيق السعادة الإنسانية في العاجل والآجل، ويذكر العلامة ابن خلدون أن العدل أساس العمران البشري

والفضائل التي بها تستقيم النفوس وتسعد المجتمعات»... ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل. والعدل
الميزان المنصوب بين الخليفة...». [مقدمة ابن خلدون 155/1]

وللعدل - قيمة خلقية - علاقة بالقيم الأخرى، فلا عدل دون معرفة الفضائل الفكرية، كما في
فكر الفارابي، وللعدل علاقة بالحرية - الإرادة والاختيار -، فلا حرية إلا في ظل العدل؛ حيث لا
يُستباح حق أحد، وللعدل علاقة بالمساواة؛ بإعطاء كل فرد ما يستحقه بحسب طبيعته ووظيفته ومنزلته
في المدينة الفاضلة؛ فهو الفضيلة التامة التي تحفظ سائر الفضائل، وبه تنتظم أحوال النفس والمجتمع.
يقول الإمام الفارابي: «... ففضيلة هذه القوى النفسانية جميعا الاعتدال المشتق من العدل، وكذا
الفضيلة فيما يحيط بذی النفس من الآثار الكائنة عن النفس، هي العدل في تلك الآثار؛ أي العدل في
إرادات النفس من غيرها وبغيرها». [رسائل الكندي - رسالة في حدود الأشياء ورسومها -، ص 179]

- التعاون: فالإنسان كما يقول الفارابي: «مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ
أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده، بل يحتاج إلى قوم، يقوم له كل
واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه، وكل واحد من كل واحد بهذه الحال. فلذلك لا يمكن أن يكون
الإنسان ينال الكمال، الذي لأجله جُعِلَت الفطرة البشرية إلا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين، يقوم
كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه، وفي أن يبلغ الكمال، ولهذا كثرت أشخاص
الإنسان، فحصلوا في المعمورة من الأرض، فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية...». [آراء أهل
المدينة الفاضلة، ص 117] يتحدث الإمام الفارابي عن المجتمع الصغير - البيت والقرية -، وعن المجتمع
الكبير - الأمة أو جميع سكان المعمورة -، ويرى الفارابي أن فضيلة - قيمة - التعاون هي الأساس
في بلوغ الكمال - السعادة -، ويشبه المجتمع بقوى أعضاء الجسم التي تعمل بتناغم تحت قيادة
القلب - رئيس المدينة الفاضلة -؛ يقول الإمام الفارابي: «فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون
على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة. والاجتماع الذي به يتعاون
على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل. والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هي
الأمة الفاضلة. وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمم التي فيها تتعاون على بلوغ
السعادة». [آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 118] ويؤكد ابن خلدون في المقدمة أن الإنسان لا يستطيع
بمفرده أن يؤمّن ضروريات حياته؛ لذلك فالتعاون ضرورة لبقاء النوع الإنساني، وهو أساس ما
يسميه بـ «ال عمران البشري». ويقول في نص طويل - نذكره مع طويله لأهميته -: «فالواحد من
البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده

بالجملة، ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه. وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل قوت ولا غذاء، ولا تتم حياته، لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضاً دفاع نفسه لفقدان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته، ويبطل نوع البشر. وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة». [المقدمة 5/1]

- التسامح: واحترام الرأي الآخر من القيم الإنسانية النبيلة والخلقية، وتعني الانفتاح على الآخر، والاستفادة منه، وقبول الاختلاف معه، يقول الكندي: «وينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير بقائه، ولا بالآتي به، ولا أحد بخس بالحق، بل كل يشرفه الحق». [رسائل الكندي الفلسفية، ص 103] هذه دعوة صريحة للاستفادة من الخصم المختلف عنا، في اللغة والدين والثقافة، وهي دعوة للحوار، وقبول الاختلاف، واحترام الرأي الآخر.

المسألة الثانية: مزايا القيم والأخلاق الاجتماعية في تحقيق الرشد الحضاري

إن التعاون الإنساني والاختلاف التنوعي والبنائي بين مختلف الأجناس والأنواع البشرية، مهما اختلفت ألوانهم ولغاتهم وطبائعهم ينمي فقه الحوار البنائي والتعايش الحضاري البناء، وفقه التواصل الحضاري، ويعد ابن رشد الحفيد أحد أعلام التعايش الفكري، والجدل الخلفي، بصفته فقيها حاذقا، وفيلسوبا حكيما، مستلهما إرثه العلمي بحكم تربيته وتكوينه وثقافته الإسلامية العربية القائمة على المواءمة بين النقل والعقل، محترما خصوصية الآخر، واحترام رأيه، بعيدا عن التعصب المقيت، والاستبداد الكريه، والاحتكام إلى الرأي الواحد. يقول ابن رشد: «... إذا كان هكذا فقد يجب علينا إن ألفينا بما تقدم من الأمم نظرا في الموجودات، واعتبارا لها، بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه في ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه وعذرناهم». [فصل المقال، ص 28]

أما الإمام الفارابي في المدينة الفاضلة بمكوناتها وعناصرها، فيروم بيان الحاجيات الضرورية لتأسيس مجتمع فاضل، ليلجأ أفضل كمالاته، فحاجته إلى نوعه حاجة فطرية ملازمة

للطبع البشري، باعتباره اجتماعيا بهذا الطبع، لا محيد له عن غيره، ولا انفكاك له عن المتواصل معهم؛ يقول الفارابي: «وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج، في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء، كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده، بل يحتاج إلى قوم، يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه، وكل واحد من كل واحد بهذه الحال...».

[آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 117]

التقويم

1. أحدد مفهوم القيم، وأذكر أنواعها وأثرها في المجتمع الإنساني؛
2. أبين ثمرات القيم الاجتماعية في السلوك البشري؛
3. أتحدث عن حق الاختلاف ومشروعيته، وفضيلة التعايش وقيمه.

الاستثمار

يقول أبو هلال العسكري: «واعلم أن الذكاء، وجودة القريحة، وثقوب الذهن، جواهر نفيسة، فإذا طلب صاحبها فبلغ مبلغا فقد حفظ جمالها على نفسه، وأحرز منفعتها له، ومن ترك الطلب حتى كلَّ ذهنه، وعميت فطنته، وتبدلت قريحته مع إدبار عمره، كان كمن عمد إلى ما عنده من الياقوت والدر فرضه، وأبطل الجمال والنفع به، وإذا كان ما جمعه من العلم قليلا، وكان حفظا، كثرت المنفعة به، وإذا كان كثيرا غير محفوظ قلت منفعة».

[الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، ص 74-75]

أتأمل النص، وأبرز مزية العلم وفضله في التحلي بالقيم الخلقية وبثها في المجتمع.

الإعداد القبلي

أهـيئ - رقيقة أصدقائي في القسم - مقالا أبرز فيه مفهوم الفضيلة ومصدرها وأنواعها وطرق اكتسابها.